إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
لقاء على الهواء في قناة لوغوس
سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

أهميَّة قُدَّاس الكلمة وارتباطه بقُدَّاس الإفخارستيَّا

إنَّ التَّرتيب الحالي الذي نعرفه عن أقسام القُدَّاس الإلهي، وهو تقديم الحَمَل، ثمَّ قُدَّاس الكلمة، ثمَّ قُدَّاس الإفخارستيَّا، لم يكن هو التَّرتيب القديم. إذ كان قُدَّاس الكلمة، والذي عُرف فيما بعد باسم قُدَّاس الموعوظين، يأتي أوَّلاً، وبعد انصراف الموعوظين، تُغلق أبواب الكنيسة، ثم يبدأ تقديم الحَمَل، ويعقبه قُدَّاس الإفخارستيَّا، أي قُدَّاس المؤمنين.

ونعرف ذلك التَّرتيب منذ أيام القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م) فنقرأ:

[في يوم الأحد يكون اجتماع ... حيث يُتلى ما كتبه الرُّسُل والأنبياء حسبما يسمح الوقت. وبعد ذلك يحثُّنا المترئِّس في حديث (أي عظة)، ويدعونا أن نتشبَّه بتلك الأمور النَّبيلة. ثم نقف جميعاً معاً لنرفع صلوات[١]. ثمَّ يؤتى بخُبز وخمر وماء، ويرفع القائد صلوات وتشكُّرات بقدر استطاعته، ثم ينال كلُّ واحد من هذه القرابين بعد تقديسها، كما أنها تُرسَل للغائبين مع الشَّمامسة][٢].

ولذلك وبعد انتقال قُدَّاس الكلمة، ليكون واقعاً بين تقديم الحَمَل، وقُدَّاس الإفخارستيَّا، فإنه في أثناء قُدَّاس الكلمة، تكون الذَّبيحة المقدَّسة الموضوعة على المذبح، مغطاة بالإبروسفارين، حتى إلى نداء الشَّماس، بالقُبلة المقدَّسة، والتي يقول فيها: ''قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدَّسة ... قدِّموا على الرَّسم ... قفوا بخوف وإلى الشَّرق انظروا''. حيث هنا يكون موعد تقديم القرابين، ولكن بعد قبلة المحبَّة الأخويَّة. إذ لا يقبل الرَّب قرابيننا إلاَّ من داخل المحبَّة.

وقُدَّاس الكَّلمة، هو الجانب التَّعليمي، أو خدمة قراءة الكلمة من القُدَّاس الإلهي. ويوضِّح العالم جريجوري دكس Gregory Dix (١٩٠١- ١٩٥٢م) طريقة أداء القراءات بقوله: ''كانت القراءات تُلحَّن بلحن بسيط أكثر من أن تُقرأ، وذلك في الاجتماعات الكبيرة على الأقل، إن لم تكن في كلِّ الاجتماعات. وعلَّة هذا، هو ضمان سماعها جيداً، ولأجل تكريم كلمة الله التي تُقرأ في الكنيسة، ويسمعها العالم خلال الكنيسة''.

وما يذكره الأب جريجوري دكس، هو ما تمارسه الكنيسة القبطيَّة عند قراءة الفصول الكتابيَّة باللُّغة القبطيَّة بلحن بسيط، يميِّز رسائل البولس، عن رسائل الكاثوليكون، عن فصل سفر الأعمال. وهو طقسٌ بديعٌ آخذ في الزَّوال، إن لم يكن قد بات تاريخاً، وأثراً بعد عين، وذلك بعد الإحجام عن قراءة الفصول بالقبطيَّة، والتي أصبحت لُغة غير مفهومة لعامة الشَّعب. أمَّا قراءة الإنجيل، فلازالت تجري باللَّحن، سواءٌ بالقبطيَّة أو بالعربيَّة.

ولقد قنَّنت الكنيسة ومنذ أيام البابا أثناسيوس الرَّسولي، أن تكون طغمة القارئين (الأغنسطسين) فقط، هي المنوط بها قراءة الفصول الكتابيَّة في الخدمة اللِّيتورجيَّة. وكان يجري تدريبها على ذلك الأمر تدريباً مُتقناً. وكان الأغنسطس (القارئ) يفهم جيداً ما يقرأه، بل وقادراً على تفسير ما يقرأه. وهذه نقطة مهمَّة جدًّا، لأنه بحسب قانون الرُّسُل (٢:١٤:١) ''(ليكن القارئ) مُجيداً للقراءة، عالماً أنَّ واجب القارئ هو أن يعمل بما يقرأه. فالذي يملأ سمع آخرين، أما يجب له أن يعرف ما يقوله؟ ألا تُكتب هذه خطيئة له أمام الله؟''.

١- وهي صلوات الأواشي التي تعقب قراءة فصل الإنجيل المقدَّس.

2- Cf. *First Apology*, 67.

الارتباط الوثيق بين قُدَّاس الكلمة، وقُدَّاس الإفخارستيَّا

منذ البداية، وبحسب كلام القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م) السَّابق ذكره، كانت خدمة القراءات أو قُدَّاس الكَّلمة، عنصراً رئيسياً في الاحتفال الإفخارستي، قبل ظهور رُتبة الموعوظين، كرُتبة واضحة المعالم في الكنيسة. فلم ينفصل قط قُدَّاس الكلمة عن قُدَّاس الإفخارستيَّا، إذ كان الاثنان يمثِّلان خدمة ليتورجيَّة واحدة. وبعد انتشار طغمة الموعوظين في الكنيسة في القرن الرَّابع الميلادي، عُرف قُدَّاس الكلمة، باسم قُدَّاس الموعوظين، إذ كان يُسمح لهم بحضوره. فالتحام الخدمتَين معاً، هي ضرورة حتميَّة، لا يأصِّلها أو يهمِّشها، وجود طغمة للموعوظين في الكنيسة، أو عدم وجودها.

وبمعنى آخر، فإنَّ قُدَّاس الكلمة، هو في الأساس من أجل المؤمنين، ولكن كان يُسمح للموعوظين بحضوره. ومن أجل ذلك، نقرأ في القانون رقم (٩) من قوانين الرُّسُل[٣]: ''كلُّ المؤمنين الذين يدخلون ويسمعون الكُتُب، ولا يبقون للصَّلاة والتَّناول المقدَّس، فليُحرَموا، لأنهم يفعلون تشويشاً للكنيسة''.

واضحٌ هنا أنَّ المؤمنين كانوا يحضرون قُدَّاس الكَّلمة. ولكن القانون يشير إلى أنَّ البعض منهم كان يخرج من الكنيسة، ولا يبق للصَّلاة والتَّناول من الأسرار المقدَّسة.

وبانتهاء قُدَّاس الكلمة، تخرج كلُّ فئات الحاضرين، ولاسيَّما فئة الموعوظين، ولكن باستثناء فئة المؤمنين، لأنَّ كلَّ من يبق في الكنيسة بعد ذلك، يلزم أن يتناول من الأسرار المقدَّسة. فيعلن الشَّمامسة قائلين: ''الأبواب، الأبواب''، فيتوجَّه حارسوا الأبواب لكي يغلقوها، ويمنعون أيَّ دخول أو خروج، إذ لا يجوز دخول أو خروج أحد منذ بدء الخدمة اللِّيتورجيَّة، وحتى التَّسريح الأخير، ولو كان على البَاب أحد المؤمنين. وفي اللِّيتورجيَّة الإثيوبيَّة، ينادي الشمَّاس بعد قُبلة السَّلام قائلاً: ''يا أيها الذين لا يتناولون، اخرُجوا''.

أقولُ ذلك بسبب عدم اكتراث كثير من المؤمنين منَّا، بحضور الكنيسة مبكِّراً للاستماع والإصغاء إلى فصول القراءات الكتابيَّة. ورويداً رويداً، بدأ قُدَّاس الكَّلمة يفقد أهميَّته.

ارتباط القراءات بالإفخارستيَّا في تعليم آباء الكنيسة

إنَّ علاقة الأسفار المقدَّسة وكلمة الإنجيل بالإفخارستيَّا، علاقة أساسيَّة جداً، إذ يتَّضح من تسجيلات القرون المبكِّرة، أنَّ القراءات والوعظ والتَّعليم، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذبيحة الإفخارستيَّا.

فنقرأ في الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل، وهي من مدوَّنات أواخر القرن الأوَّل الميلادي، ما يوضِّح الأثر الذي انطبق على الإفخارستيَّا من القراءة والتَّعليم هكذا: ''نشكرك أيها الآب القدُّوس، من أجل اسمك القدُّوس الذي أسكنته في قلوبنا. ومن أجل المعرفة والإيمان والخلود التي عرَّفتنا بها، بواسطة يسوع فتاك. لك المجد إلى الآباد'' (ديداخي١٠:٢).

ويقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م):

[إنَّ الخُبز يتقدَّس بكلمة الله والصَّلاة].

فواضحٌ هنا أنَّ تقديس القرابين يتم بكلمة الله مع الصَّلاة. ولم يأت العلاَّمة أوريجانوس بشيء خارجاً عن الإنجيل المقدَّس الذي يقول: «لأنَّ كلَّ خليقة الله جيِّده، ولا يُرفض شيء إذا أُخذ مع الشُّكر، لأنه يُقدَّس بكلمة الله والصَّلاة» (١تيموثاوس ٤:٥).

٣- وهو يقابل القانون رقم (٧:٢) من قوانين الرُّسُل القبطيَّة.

ويقول العلاَّمة أوريجانوس أيضاً:

[في قُدَّاس الموعوظين، تُخطب النَّفس للرَّب يسوع. وفي قُدَّاس المؤمنين، تدخل النَّفس في رباط الزِّيجة معه].

وفي خطاب القدِّيس أنبا مقار الكبير الأخير الذي ألقاه على أولاده قبل نياحته يقول لهم:

[اجعلوا دخولكم إلى الكنيسة مبكِّراً، لتسمعوا المزامير والتَّسبحة، ثمَّ قراءة الكُتُب كما علَّمنا الرُّسُل في قوانينهم، قبل أن تأخذوا جسد المسيح ودمه المحيي ...].

ولعلَّ القدِّيس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م) قد قدَّم لنا في عبارة موجزة، أهميَّة القراءات الكتابيَّة لذبيحة الإفخارستيَّا، إذ يجعل طقس القراءة والوعظ والتَّعليم قبل تقديم الإفخارستيَّا، أمراً جوهرياً بالدَّرجة الأولى. فيقول:

[وهكذا إذا قدَّمَت الكنيسة ذبيحتها **بفكر واحد متَّحد**، فإنَّ تقدمتها تُحسب بحق أنها طاهرة أمام الله] (ضدَّ الهراطقة ٤:١٨).

هذا الفكر الواحد المتَّحد، الذي يُعلِّم به القدِّيس إيريناؤس، هو ما تفعله القراءات في سامعيها. فهي في كلِّ مرَّة، تدور حول فكر واحد، اجتمعت الكنيسة كلُّها، كي تُصلِّي من أجله. ومن هنا يظهر لنا أهميَّة حضور الشَّعب للقراءات الكنسيَّة، والإصغاء الواعي إليها، ليس بوعي العقل فقط، بل بانتباهة القلب أيضاً. فهذا هو المدخل الإنجيلي والآبائي، للاشتراك في الذَّبيحة المقدَّسة.

إنَّ هذه العقيدة تأخذ أصولها وأسبابها مباشرة من قول الرَّب لتلاميذه قبل التَّناول من العشاء السِّري الأخير: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلَّمتكم به» (يوحنا ١٥:٣). فقد قدَّم الرَّب جسده ودمه الكريمين لتلاميذه، بعد أن انتهى لتوِّه من تعاليمه وأقواله، تلك التي اعتبرها الرَّب كعمليَّة تطهير أساسيَّة للذِّهن والقلب. فهذا هو المفهوم الرُّوحي للتَّطهير الدَّاخلي، أي القلبي والذِّهني «تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رومية ١٢:٢). وهكذا يكتمل الاتحاد بين الله وشعبه، أولاً بكلمته، ثم بجسده ودمه. وهكذا فعل موسى منذ القديم عندما قرأ كتاب العهد على الشَّعب ثم رشَّ الشَّعب بالدَّم.

وهذا هو ما يقوله الأنبا ساويرس ابن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م)، حيث يقول:

[لم يُأمر ببطالة المعيشة الدنيويَّة يوم الأحد، إلاَّ لكي يتفرَّغ الإنسان لقراءة الكُتُب المقدَّسة التي هي المعيشة الرُّوحانيَّة، ويجاهد عليها بغير كسل، ويتحايل في طلبها كما يفعل في المعيشة الدُّنيويَّة. لأنَّ قراءة كُتُب الله تُطهِّر النَّفس والجسد، وتنقِّيهما من الخطيئة كما يقول ربُّنا يسوع المسيح لتلاميذه في الإنجيل المقدَّس][٤].

ويتكلَّم البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) عن علاقة قُدَّاس الكلمة بقُدَّاس الذَّبيحة، فيقول:

[نحن نغتذي بكلمات الحق، ونشترك في تعاليمه الحيَّة، حتى نستطيع بعد ذلك أن نتقبَّل أفراح السَّماء. لأنه كما دعا تلاميذه إلى العُليَّة، هكذا يدعونا ''الكلمة'' معهم إلى الوليمة السَّمائيَّة غير الفاسدة] (مقولة ١٨).

لقد شبَّه الرَّبُّ النَّفسَ بأرض تُلقى عليها بذار الكلمة. وحين تغتذي تلك الأرض بجسد الرَّب، وترتوي بدمه متواتراً، تنمو البذار وتُثمر ثمراً للحياة الأبديَّة، نقاوة وروحاً وحياة وميراثاً، لملكوت لا يزول.

وكلُّ من يثبُت في الكلمة، يثبُت في الله، كقول يوحنَّا الحبيب: «أمَّا أنتم، فما سمعتموه من البدء، فليثبُت إذاً فيكم. إن ثبت فيكم ما سمعتموه من البدء، فأنتم أيضاً تثبتون في الابن وفي الآب» (١يوحنا ٢:٢٤).

وها الكنيسة تقدِّم لنا الكلمة، مسموعة كلَّ يوم. وتقدِّم لنا المسيح مذبوحاً على المذبح، كلَّ يوم. ذبيحة غير دمويَّة،

٤- الأنبا ساويرس ابن المقفع، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٣١

وناطقة بسرٍّ، لا يُعبَّر عنه.

أمَّا الأنبا ساويرس أُسقُف الأشمونين في القرن العاشر، فيتكلَّم بلهجة شديدة كانت لازمة في زمانه، بسبب التَّدهور الرُّوحي الذي أصاب الكنيسة آنئذ، فيقول:

[كلُّ من لا يحضر تلاوة الكُتُب والقُربان، ينال العقوبة العظيمة. لأنَّ بدلاً من أن يُقدِّس المسيح، ينجِّسه. لأنه يتناول بنفس نجسه، وجسد نجس. ولذلك فإنَّ الكُتُب والقُدَّاس جُعلت قبل القُربان، لتقدِّس نفس المؤمن وجسده، وتطهِّره. وبعد ذلك يستحق القُربان][٥].

ومن قوانين البابا غُبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م)، نقرأ في القانون الثَّاني له[٦]: ''لا يُقدَّس قُدَّاس إلاَّ بعد أن تُقرأ (فصول) الأبسطلس والكاثوليكون والإبركسيس والإنجيل المختصَّة بذلك اليَوم، إن وُجدت الكُتُب. وإن لم توجد، فيُقرأ ما عُيِّن من فصول هذه الكُتُب جميعها''.

لقد كان حضور القراءات الكنسيَّة ضرورة، للسَّماح بتناول القُربان المقدَّس في نهاية القُدَّاس، حتى أنَّ ابن كبر (+ ١٣٢٤م) يذكر أمراً عجيباً في هذا الخصوص، ولنسمعه يقول:

''وقد يتَّفق أن يحضر إلى الكنيسة بعد توسُّط القُدَّاس، من كان قد أعاقته ضرورة، أو حضر من مكان بعيد، فيُقرأ له إنجيل ثان آخر القُدَّاس، ويُقرَّب، ولاسيَّما في الأعياد السَّيديَّة الكبار. أمَّا إذا تأخَّر إلى أن يبتدئوا بالقُربان، فلا يُقرِّبه الكاهن متى علم به، لأنه لم يحضر القُدَّاس **ولا سمع ما يُتلى من الفصول**، ولا تأهَّب لتناول السَّرائر حق التأهُّب''.

إذاً بحسب طقس الكنيسة، فإنَّ الإصغاء إلى القراءات الكنسيَّة، مؤهِّل للتَّناول من الأسرار المقدَّسة. هذا هو الرِّباط بين الكلمة والإفخارستيَّا.

ويعقِّب الأب ألكسندر شميمان (+ ١٩٨٣م) على ذلك بقوله: لا يُعقل أن تكون الكنيسة قد خصَّت الموعوظين من باب الصُّدفة بمكانة، هي من الأهميَّة، بحيث سمَّت كلَّ القسم الأوَّل من الاجتماع الإفخارستي باسم ''قُدَّاس الموعوظين''. لأنَّ ذلك يشير إلى المرمى العميق لهذا القسم، ويكشف لنا جوهر طابعه، حتى صار من غير المقبول حذفه أو شطبه دون أن يترتَّب على ذلك عواقب وخيمة، تضُر بالغاية الأساسيَّة من القُدَّاس الإلهي برمَّته. فقُدَّاس الموعوظين هو قسمٌ جوهري من ترتيب القُدَّاس الإلهي نفسه.

فالصَّلاة من أجل الموعوظين، هي قبل كلِّ شيء تعبير ليتورجي عن الرِّسالة الأساسيَّة للكنيسة، وأعني بها البشارة. فلا يمكن للمسيحيِّين أن يكفُّوا عن البشارة من دون أن يعني ذلك تنكُّراً لطبيعتهم كمبشِّرين، وتنصُّلاً من رسالتهم. من الأكيد تاريخياً، أنَّ هذه الصَّلوات أُدخلت عندما كانت الكنيسة تضم موعوظين. ولكن أيضاً عندما كانت منعطفة على العالم، لهدايته إلى المسيح. وعندما كانت ترى في العالم غاية رسالتها وموضوعها. ثم تغيَّرت الظُّروف، وبدا أنَّ العالم اهتدى إلى المسيح. ولكن إذا نظرنا إلى عالمنا اليَوم، ألاَّ نرى أننا نعيش في عالم نأى عن المسيحيَّة، بل لم يسمع عن المسيح قط؟ أفلا يعني ذلك بالتَّالي، أنَّ البشارة باتت مجدَّداً محوراً لرسالة الكنيسة؟ وألا يعني ذلك، أنَّ الجماعة تخطئ حين ترفض البشارة كخدمة أساسيَّة للكنيسة في هذا العالم؟

ومن هنا، وبناء على ما تقدَّم، من المهم في زماننا هذا، أن نُبقي على البنية اللِّيتورجيَّة، التي تجمع بين البشارة وثمرها، أي بين ''قُدَّاس الموعوظين'' و''قُدَّاس المؤمنين''[٧].

٥- نفس المرجع، ص ١١١، ١٢٩

٦- من مجموعة العشر قوانين المختصَّة به، أي من كتابه الثَّاني في القوانين.

٧- الأب ألكسندر شميمان، الإفخارستيَّا سرُّ الملكوت، ترجمة سامر عبُّود، منشورات النُّور، ١٩٩٣م، ص ١٢٦،١٢٧